

أساليب الاستعمار الفرنسي في غرس الشعور بالاستلاب بال شخصية
الجزائرية، وتداعياته على الانتماء الحضاري للأمة الجزائرية.

أ/ بوخاري مليكة /قسم علوم الإعلام والاتصال/ المدرسة الوطنية العليا لعلوم
الإعلام والصحافة

boukhariensjsi@yahoo.com

الكلمات المفتاحية: الاستلاب، تحقير الشخصية الجزائرية، محاربة الدين، اللغة، الثقافة
الوطنية، الانتماء الحضاري، التحديات، السينما الاستعمارية.

abstract

the French occupation of Algeria tried to destroy the Algerian
personality, by destruction of schools, mosques, to eliminate the
Arabic language.

By destroying the national personality, the colonizer tries to
make his culture the dominant culture, and the feeling of
alienation becomes the dominant feeling of other générations

France has sought in all possible ways to make the Algerian
personal despicable portray stereotypes of him in literature or in
the cinema, and in fact France has done the same task with all
other colonies. Like the Antilles, for example, but they have

implemented their plans in Algeria very clearly given the long period that exceeded the century.

Franz Fanon wrote important books on the subject of the destruction of personality, through contempt and the sense of inferiority is the only feeling towards the occupier, Alienation can destroy the national culture is the impact is very dangerous, Franz Fanon emphasizes the inevitability of the colonization of the colonizer because of the pressure exerted by the colonizer on the humanity of the colonialist in all its details. The French occupying forces exploited cinema as a major weapon in the colonization of Africa and Algeria in particular through the image productions that speak of the funny, despicable Muslim and the playful in his actions. Was convinced by Fanon.

"Franz Fanon was not mistaken when he asserted that the main weapon of the colonizers was to impose a depraved image of the colonists. This totally negative, fabricated representation ended up settling in the minds of the peoples under control, Who is following the struggle led by the Algerian in his revolution against France will notice that at first it was difficult to penetrate this fortress of the Algerian society and carefully deprived of religion, in addition to the hidden hatred of the invaders grew in the hearts of all Algerians "at home the Algerian people in a

reaction from him Did not accept to lose his national identity to give up in favor of a false personality.

إن الشعور بالاستلاب هو ما يتكون عند الشعوب المستعمرة، والتي تصبح وبدون ما تشعر تحس بدونية في شخصيتها وتكوينها وثقافتها وتصبح تميل إلى تقليد واعتبار من كان يحتلها هو الذي يشكل الامتياز والنموذج الذي يجب الاقتداء به، وهو ما يعرف اليوم بالثقافة التي تصل بيننا وبين الغرب، لاسيما مع حالة التبعية الثقافية التي تعيشها خاصة الشعوب الضعيفة والتي كانت سابقا مستعمرة من الدول الإمبريالية، أما في الجزائر فالأكيد أن الاستعمار الفرنسي قام بكل ما يستطيع لمحو الشخصية الجزائرية وطمس ملامحها وإرساء قواعد الثقافة الفرنسية وخططت للمدى البعيد لأهدافها خاصة وأنها بذلك تضمن تواجدها الدائم وإن لم يكن هذا الوجود عسكري فيكفي أن تتبنى المستعمرات ثقافة البلد المستعمر وهذا وحده يعد فوز كبير للاحتلال وللتواجد الدائم ومن خلال ما سبق ذكره نطرح الإشكالية البحثية التالية والتي تعد محدد ومنطلق منهجي لمحتوى المداخلة والتي صغناها كما يلي: ما هي أساليب فرنسا في تحطيم الشخصية الجزائرية، وكيف استطاعت أن توغل الاستلاب في مختلف فئات المجتمع؟

1- فرنسا ومهمة القضاء على الثقافة والهوية الوطنية في الجزائر:

إن المشروع الاستيطاني الفرنسي ليس خافيا على احد فقد سعت فرنسا ومنذ احتلالها الجزائر الى محو الشخصية الجزائرية بكل مميزاتا التاريخية وطمس ملامح الهوية وهو الأمر الذي يتفق عليه المؤرخون وكبداية سعت لتجهيل الجزائريين والقضاء على النخب وطبعا هو حال كل بلد مستعمر يسعى للبقاء والديمومة في ثنايا المجتمع المستعمر ، ويذكر في هذا المجال الدكتور عبد المالك مرتاض في كتابه فنون النشر الأدبي " أن الثقافة العربية

في الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي كانت مزدهرة نسبيا، وان معظم السكان الجزائريين - لدى احتلال الجزائر- كانوا يتقنون القراءة، والكتابة والحساب.¹، ما يجعلنا الى محاولة معرفة السياسة الاستدمارية لفرنسا كما يقول بلقاسم نايت بلقاسم معروفة وواضحة المعالم والملامح للقضاء على الهوية الوطنية الجزائرية وجعل الشخصية الجزائرية شخصية مستلبة للآخر، لتأتي عملية تصوير ونقل هذه الصورة النمطية عنا من خلال السينما خاصة لباقي الدول ليكون الاستعمار الفرنسي نعمة على الجزائر حسب رواية فرنسا دائما.

ولقد سعت فرنسا للقضاء على معالم الحضارة الجزائرية والثقافة التي كانت تكون المجتمع الجزائري "فاستولت أو قضت على معظم معاهد العلم والتعليم التي كانت قائمة في الجزائر عند بداية الاحتلال والمتمثلة في المدارس والجموع والزوايا والكتاتيب القرآنية والمكتبات العامة والمكتبات الخاصة...") فقضت على معظم رجال العلم والتعليم خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي نظرا للمقاومة الشعبية الباسلة التي قادها العلماء ورجال الدين من فقهاء ورجال الطرق الصوفية جيلا بعد جيل ضد الاحتلال الفرنسي حتى مطلع القرن العشرين.²، ولعل ما سبق قوله يؤكد الباحث الفرنسي جاك فيري في كتابه " فرنسا والإسلام من نابليون الى ميتران" حيث يؤكد أن المهمة التي كانت تتبناها فرنسا لم تكن سوى استعمارا وليس تحضير العالم الإسلامي إذ يقول " هل كان العالم الإسلامي أقل تقدما؟ لم يعد لهذه الكلمة من معنى فقد استطاع بعضهم وربما دون مغالطة أن يدعموا الأطروحة القائلة بأن معدل التعليم في أوساط الفلاحين الجزائريين الناطقين بالعربية لم يكن أقل من معدل التعليم السائد في الأرياف الفرنسية، وكانت المعرفة الكلاسيكية (الفقهية والأدبية بخاصة) ما تزال تدرس داخل شبكة واسعة من المؤسسات بدءا من مؤسسة الزاوية المتواضعة (وهي تقابل الدير عندنا) وانتهاء

بالجامعات العريقة والعظيمة المتمثلة بالأزهر في القاهرة أو بالقيروان في فاس (...). وكانت قيم العرض والشرف والكرم والضيافة المحصورة بالطبقة الارستقراطية في فرنسا شائعة ومنتشرة في مختلف طبقات المجتمع الإسلامي.³، فينتهج المستعمر لضمان التحكم في شعب البلد المحتل كل السبل خاصة ما إذا أحس بأنه قد يفشل في البقاء في تلك الدولة فيسخر كل إمكانياته وتخطيطاته لضمان البقاء والاستمرار في ذهنية الشعب فيلجأ لمختلف الوسائل لتحقيق ذلك بما فيها الحملات التبشيرية التي تعتبر واحد من وسائل غرس الاستلاب في نفسية الشعب المحتل والتي تتبع كل احتلال في أي بلد ولعل ما عقب احتلال العراق من أفواج تنصيرية وتبشيرية هو دليل على ما نقول وهو ذات الحال الذي عرفته الجزائر، وباقي الدول المحتلة من طرف الامبريالية الغربية في القرن الماضي إذ أن "البلاغات المظفرة التي تنثرها الإرساليات التبشيرية تدلنا على أن خمائر الاستلاب التي تم ضخها في رحم الشعب المستعمر هي على جانب كبير من القوة."⁴ كما أن المحتل بوصوله لهذا المرحلة هو يدرك جيدا لأهدافه المستقبلية والمبنية في الأساس على العودة يوما ما لتلك البلاد ولو بأشكال مختلفة غير الاجتياح العسكري ولكن الأكثر خطورة هو تبني ثقافة المحتل وطمس وتجاهل الثقافات المحلية التي يصبح ينظر لها بازدراء من السكان الأصليين للبلد حيث "أن البورجوازية الاستعمارية حين تدرك عجزها عن الاستمرار في السيطرة على البلاد المستعمرة تقرر لأن تخوض معركة خافية في ميدان الثقافة والقيم والتكتيك."⁵

2- ماهية الاستلاب:

كيف يتكون الشعور بالاستلاب؟:

يؤكد فرانز فانون على حتمية استلاب المستعمر بسبب ما مارسه المستعمر من ضغوط وتحقير لإنسانية المستعمر بكل تفاصيلها ولقد استغلت قوات الاحتلال الفرنسي السينما كسلاح رئيسي في استعمار إفريقيا والجزائر بصفة خاصة من خلال الإنتاجات المصورة التي تتحدث عن المسلم المضحك، الحقير، واللعوب في تصرفاته وهو الأمر الذي كان مقتنع به فانون "لم يكن فرانز فانون مخطئا عندما أكد أن السلاح الأساسي للمستعمرين هو فرض صورة تحقيرية للمستعمرين إن هذا التمثيل السليبي المفبرك كليا انتهى بالاستيطان في أذهان الشعوب الخاضعة."⁶ من هذا المنطلق شكلت السينما وسيلة مهمة لفرض تلك الصورة حيث أن السينما هي عالم غير حقيقي خيالي يصنعه الإنسان انطلاقا من أفكاره ومركباته النفسية بالدرجة الأولى لتستقر في الأخير في ذهنه ونفسه كحقيقة "إن العالم الفيلمي عالم مصطنع خلقه الإنسان جماليا، هو منتج مشتق من التقنية ومن الضمير العقلي وذلك ما دفع جون أيتون للقول أن السينما نفسانية."⁷ وهو ما تعتمده كل الدول في إنتاجها للأفلام وهو ذات النموذج السائد في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تصور السود والى غاية اليوم أقل درجة من البيض وإن وجدت بعض الاستثناءات إلا أنها هي الأخرى لا تحتوى على النظرة الايجابية للسود ولا تخدمهم على الإطلاق في رسم صورة ذهنية إيجابية لهم كما كان الحال بالنسبة للسكان الأمريكيين ذوي الأصول الايرلندية، إن السينما وبخاصة الصورة والتي تعد من أساسيات اللغة السينمائية تعمل على خلق مفهوم الجناسة وإبراز الفوارق الثقافية والجسدية وتمجيد عرق عن آخر ما ولّد ترتيبا للأجناس ما فتى يتجذر في المستعمر على أساس أنه حقيقة خاصة "أن ترتيب الأجناس هذا المصحوب بالصورة يمثل شكلا من أشكال العنف الرمزي، وهكذا فقد أصبحت أداة تقارب الشعوب المتمثلة في جسر الصورة مرجعية للاختلاف بمعنى آخر

الوسيط الذي يستطيع إبراز فكرة دونية الشعوب الملونة.⁸ أو الشعوب التي كانت مستعمرة من طرف الدول القوية.

إن الدراسة التي قام بها فرانز فانون حول علاقة وتأثير الأشخاص البيض على باقي الأجناس والألوان الأخرى انطلاقاً من كونه إنسان أسود مستعمر باعتبار أن فانون من جزر الأنتيل التي كانت فرنسا تحتلها أيضاً ويمكن تطبيقها ليس فقط على علاقة الرجل الأبيض ونظرته للأسود بل على علاقة كل شعب مستعمر مع المستعمر حيث يؤكد "أن كل شعب مستعمر أي كل شعب نشأت في صميمه عقدة الدونية بسبب دفن الأصالة الثقافية المحلية بتموضع بإزاء لغة الأمة المتحضرة أي ثقافة الميتزبول"⁹، وحسب ذات الدراسة وملاحظات فانون فإن الاستلاب الذي فرض على المستعمر نلمسه على كل المستويات وحتى على المستوى الإنساني الذي من المفروض أن يتعامل به كل الناس فينظر لغير الأوربي الأبيض على أنه أقل مرتبة من الأبيض ويؤكد فانون من خلال ملاحظاته بأن الاستلاب موجود في كل مستويات الحياة ويطبق على المستعمر في مختلف الأماكن ومن مختلف الأشخاص وأعطى فانون مثالا انطلاقاً من ملاحظاته التي كونها ومن خلال عمله في المجال الطبي فيقول "هذا الأمر يعرفه أطباء قاعات الاستشارات لقد تعاقب عشرون مريضاً أوربياً يقول لهم الطبيب: اجلسوا سيدي... لماذا جئتم؟ مما تشكون؟ ثم يصل زنجي أو عربي فيقول له الطبيب: اجلس يا شاطر... ما بك؟ أين الألم؟ عندما لا يقول له ماذا أنت يوجد؟"¹⁰، ما يعني أن الطبيب يتعامل مع الأوربي بإنسانية لأنه ينظر له بالأساس أنه إنسان في حين الزنجي أو العربي فهو بالنسبة للطبيب أقل درجة في الإنسانية لذا يعامل على ذلك الأساس الدوني، وهو الأمر الذي كان حاصل في أغلب الحالات ونحن إن ذكرنا هذا فالتنويه ببعض المستويات التي يتكون فيه الاستلاب، ولقد

أشار فرانز فانون الذي اهتم بظاهرة الاستلاب وتناولها بالدراسة بأن من بين الوسائل التي يعتمد عليها أي محتل لإلصاق هذه الصورة بالمستعمر هي السينما حيثي أعطي مثالا عن السينما الأمريكية وهذا بحكم إقامته بفرنسا للدراسة وبواسطة مشاهدته للأفلام الأمريكية التي تروج لنموذج واحد من الزوج "في السينما يبدو التاريخ أكثر غرابة (...). فمعظم الأفلام الأمريكية المدبلجة في فرنسا تعاود إنتاج الزوج النمطيين".¹¹ وهو يقصد تلك الصورة المشوهة عن السود في أمريكا والتي تحمل كل الصفات السلبية لتلصقها بالسود فيظهر دائما في تلك الأفلام دائما(الإنسان الملون) التابع الخادم، المطيع الذي لا يجيد عمل أي شيء بدون وجود السيد الأبيض "يطلب من الأسود أن يكون زنجيا طيبا وبعد هذا الطرح يأتي البقية لوحدها، فجعله يتكلم بلغة رديئة يعني ربطه بصورته وتفخيخه وحبسه كضحية أبدية لجوهر".¹² وهو نفس الطريق الذي انتهجته فرنسا في تصوير الجزائري ونعته بمختلف الصفات القبيحة لتغرس فيه ذلك للأبد ولتجعل له الصورة النمطية التي تخدم الاحتلال وتسمح للأوروبي صاحب الميزات السامية من البقاء لتسيير هؤلاء الأوباش الذين لا يحسنون شيء في الحضارة ولا في الثقافة وكما أشرنا سابقا أن هذا الاستلاب يتكون بواسطة محور الثقافة المحلية الأصلية وفرض ثقافة المحتل، وإلى أبعد من ذلك طرح فرانس فانون الاستلاب بصفة عامة في الصورة بكل أبعادها فحتى في الرسوم المتحركة الموجهة للأطفال، إذ نجد دائما بصورة المتخلف "فعلى الزنجي شاء ذلك أم أبي أن يؤدي دور الخدم الذي حدده له الأبيض أنظروا الرسوم الموضوعية للأطفال على فم الزوج oui missie"¹³ فلو لاحظنا فحتى العبارة مكتوبة، ومنطوقة بصفة خاطئة ما يعني أن الأبيض أي الأوروبي هو الوحيد الذي يجيد التصرف والكلام أيضا وهو الوحيد المتحضر فكما يحاول الزنجي أن يثبت للأبيض أنه إنسان يحاول المستعمر أن يثبت للأوروبي أنه لا يرقى لمستواه في حين هذه الدونية تولدت عنده بسبب الأوروبي

المستعمر "يريد الأسود أن يكون أبيض ويستमित الأبيض لتأكيد وضعه البشري".¹⁴ هذا الخلل الموجود لم يأتي بمحض الصدفة حيث "الحضارة البيضاء، والثقافة الأوروبية فرضتا على الأسود انحرافا وجوديا".¹⁵ وهو نفس الأمر الذي نقيسه على أي شعب مستعمر بما فيها الجزائر والتي بقيت محتلة لأكثر من قرن واثان وثلاثين عاما وطيلة تلك الفترة والجزائري يخضع لمختلف أنواع الحقد والممارسة اللانسانية والتميز بينه بوصفه من الأهالي في حين كان يعد الأوربي من الدرجة الأولى وبامتياز.

إن الشعور بالاستلاب يكون على جبهتين يؤثر على المستعمر من جهة بشعوره بالدونية والمستعمر الأوربي بإحساسه بالكمال والتفوق نحو نفسه ويصبح ينظر للشعب المحتل بفوقية والذي في الواقع بقي لمئات من السنون ينهب خيراتة فيقول فانون حول نظرة الأبيض الذي يقول "أنا أبيض يعني أملك الجمال والفضيلة اللذين لم يكونا يوما أسودين (...). أنا من لون النهار".¹⁶ ما يعني أن كلا الطرفين يعاني من الاستلاب لكن المستضعف كون التأثير عليه بشكل أكبر، ولقد أعطى فرانز فانون أمثلة من الواقع عن الاستلاب الذي يعيشه الإنثيلي الذي كان مستعمر من طرف الفرنسيين وكيف تولدت لديهم عقدة طبقية الجنس باعتبار اللون حيث أن زواج أي إنثيلي أسود سواء رجل أو امرأة بامرأة بيضاء البشرة أو رجل أبيض هو بمثابة الحلم الذي يراود الأسود والسوداء طوال حياتهما وكأن الرجل الأبيض ما هو سوى امتياز وتحسين في الجنس والمكانة ولا بد من الفوز به في هذه الحياة ونقل فانون عن إحدى الأنتيليات اللواتي أعلن لها أحد البيض حبه لها "يوم صرح الأبيض بحبه للمولدة" كان لا بد أن شيئا خارقا قد حدث فقد حدث اعتراف باندماج في مجتمع كان يبدو مغلقا بشكل محكم فنقائص القيمة البسيكولوجية هذا الإحساس بالنقص ونظيره استحالة بلوغ الصفاء كان يتلاشى تماما بين عشية

وضحاها كانت المولدة تنتقل من رتبة العبيد إلى مرتبة الأسياد.¹⁷ الحال ذاته بالنسبة للرجل الأسود أو المستعمر أين ما كان حيث أن الدراسة التي قام بها فرانز فانون تنطبق على كل من عانى الاضطهاد الاستعماري وفي ذات السياق فإن زواج الزنجي أي المستعمر بفتاة بالمواصفات الأوربية يأتي في الدرجة الأولى فاللون الأبيض هو بمثابة انتقام ووصول للدرجة التي تميز الأوربي في التفوق الجنسي "في مداخلة لويس آخيل في الملتقيات ما بين الأعراق سنة 1949 كان يقول: فيما يخص الزواج بين الأعراق بالذات يمكن التساؤل إلى أي حد لا يكون أحيانا بالنسبة إلى الشريك الملون نوعا من التكريس الذاتي للإبادة الذاتية الإبادة في ذاته لوهم اللون الذي عانى منه طويلا.¹⁸ وكأن الزنجي أو المستعمر يرى نفسه في الدرجة السفلى للأعراق لذا يحاول فرض نفسه بالفوز بشريك من الجنس السامي الأبيض وهو اعتراف ضمني بأنه أقل مرتبة لأنه لا يرقى بلون بشرته ولا يعترف بإنسانيته إلا إذا وصل إلى الجنس الآخر طبعاً مع التركيز على بياض الجنس الآخر "لدى بعض الأشخاص الملونين تبدو ظاهرة الزواج من شخص أبيض العرق قد تغلب على كل اعتبار آخر فهم يجدون فيها وسيلة للوصول إلى مساواة شاملة مع هذا العرق الشهير السائد في العالم المهيمن على الشعوب الملونة.¹⁹، إن أسباب الاستلاب الذي يتكون لدى الإنسان المستعمر سواء كان المستعمر مثقفاً أو لا تعود بالأساس للحضارة الغربية الاستعمارية ومختلف منشطياتها "إن الحضارة الأوربية وأبرز ممثلها هم المسؤولين عن العرقية الكولونيالية."²⁰.

وفي الواقع الشعور بالاستلاب ترسخ في عقلية المستعمر وفي تحبط مستمر يعمل على إقناع الآخر بالعكس ويضيف فانون فيما يخص هذه النظرة التحقيرية التي يشعر بها الفرد المستعمر ويردها للمحتل طبعاً في ترسيخه لهذا التصور والذي بات مع الوقت اعتقاداً

راسخا لا يتغير في نفسية المستعمر "وإذا كان في حين معين من تاريخه قد توصل إلى إثارة مسألة كونه إنسانا أم لا فذلك لأن هناك من كان يرفض حقيقة الإنسانية"²¹، فيقول الأسود أو المستعمر في نفسه "سأرغم الأبيض على الاعتراف بإنسانيتي."²²، هذا التمييز الذي وقعت فيه الشعوب المستعمرة ما هو إلا دليل على حقد وعنف المحتل الأبيض على المستعمر ومحاولة جعله رغم تفوقه سوى تابع دوني "ليس التعصب إزاء اللون بشيء آخر سوى حقد أعمى يمكنه عرق لغرق آخر احتقار الشعوب القوية والغنية للشعوب التي تعتبرها أدنى منها ثم الشعور المرير لدى هؤلاء المكروهين على الإذعان والذين تلحق بهم المهانة بما أن اللون هو علامة العرق الخارجية الأشد بروزا فقد صار المعيار الذي من زاويته يحكم على الناس بصرف النظر على مكاسبهم التربوية ومكتسباتهم الاجتماعية"²³، فكل مستعمر مستقل جديد يسعى لأن يأخذ مرتبة المستعمر ولكن بطريقة عنيفة جدا وغير مفهومة "ففي محو الاستعمار يجب إذن تغيير الوضع الاستعماري تغييرا كاملا ويمكن أن يقوم تعريفه إذا أردنا أن نصفه وصفا دقيقا في هذه العبارة المعروفة الأواخر سيصبحون الأوائل."²⁴

3- الاستلاب الثقافي:

مفهوم الثقافة:

للتحدث عن الاستلاب الثقافي الذي يتسبب فيه الاحتلال دائما لابد لنا من إعطاء تعريف عام للثقافة والتي تعد في الواقع كلمة حديثة وجديدة على الدول العربية إذ ابتدعتها أوروبا "مفهوم ثقافة ثمرة من ثمار عصر النهضة عندما شهدت أوروبا في القرن 16 مجموعة من الأعمال الأدبية الجلييلة في الفن وفي الأدب وفي الفكر."²⁵، والأكد أن

كل التعاريف العالمية للثقافة تلتقي كلها في كون الثقافة هي منتج خاص بمجتمع معين فيعرفها الباحث حسن عبد الله العابد في كتابه أثر العولمة في الثقافة العربية بأنها "منظومة معرفية سلوكية متكاملة منتقاة، تشمل العقائد وكل ما صنعه الإنسان بعقله ويده في بيئته الاجتماعية وهي وعي الإنسان بالحياة بما يحقق به نفسه ووجوده ورؤياه والتعبير عن ذلك بمختلف أوجه النشاط الإنساني".²⁶، ومن البديهي أن أي شخص يستطيع التمييز بين الثقافات المحلية في العالم كون لكل واحدة منها خصوصيات تجعلها تختلف عن باقي الأوطان في الأرض "الشعوب والأمم تمتاز بثقافتها وبما يقوم به من أفعال وأقوال وآداب وأنظمة اقتصادية وسياسية واجتماعية".²⁷، في حين يعتبر المفكر الجزائري مالك بن نبي الثقافة من بين أصعب المفاهيم التي يمكن أن تحدد وهذا راجع لأسباب عديدة على غرار كون المصطلح جديد بالإضافة لتدخل المخططات الاستعمارية في الثقافات المحلية للدول الضعيفة وحاول مالك بن نبي أن يعطيها حسبه مفهوما عمليا فيقول عنها بأنها: "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية وتصبح لاشعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه".²⁸، ويؤكد بن نبي على كون على أهمية الثقافة في حل مشاكل الفرد التي تخامرها على أساس إنها ثقافة محلية المنشأ "الثقافة تتدخل في شؤون الفرد وبناء المجتمع وتعالج مشكلة القيادة كما تعالج مشكلة الجماهير".²⁹ ويذهب الى أبعد من ذلك في تحليله للثقافة وعلاقتها بالأفراد والمجتمع "الثقافة هي تلك الكتلة نفسها بما تتضمنه من عادات متجانسة وعبقريات متقاربة وتقاليد متكاملة وأذواق متناسبة وعواطف متشابهة".³⁰

4- الثقافة المحلية وتأثير الاحتلال:

ويعتبر الدكتور محمد العربي الزبيري أن الثقافة كانت دائما من بين أهداف الاستعمار في كل العالم نظرا لقدرة الثقافة حسبه هي التي تضمن استمرار الشعوب "إن الثقافة هي سر بقاء الشعوب فإنها اسمت الوحدة التي هي أساس القوة وبدون قوة لا وجود للبناء والتشييد ولا ازدهار للفكر والإبداع وكان المستعمر بجميع أنواعه ومنذ القديم يعرف ذلك وعليه فإنه كان دائما يوجه ضرباته الأولى إلى الكيان الثقافي إما عن طريق الإعدام المادي أو بواسطة الغزو الروحي والأدبي بعد ذلك يركز على السيطرة السياسية والاقتصادية".³¹، فينتهج المستعمر لضمان التحكم في شعب البلد المحتل كل السبل خاصة ما إذا أحس بأنه قد يفشل في البقاء في تلك الدولة فيسخر كل إمكاناته وتخطيطاته لضمان البقاء والاستمرار في ذهنية الشعب فيلجأ لمختلف الوسائل لتحقيق ذلك بما فيها الحملات التبشيرية التي تعتبر واحد من وسائل غرس الاستلاب في نفسية الشعب المحتل والتي تتبع كل احتلال في أي بلد ولعل ما عقب احتلال العراق من أفواج تنصيرية وتبشيرية هو دليل على ما نقول وهو ذات الحال الذي عرفته الجزائر، وباقي الدول المحتلة من طرف الامبريالية الغربية في القرن الماضي إذ أن "البلاغات المظفرة التي تنشرها الإرساليات التبشيرية تدلنا على أن خمائر الاستلاب التي تم ضخها في رحم الشعب المستعمر هي على جانب كبير من القوة".³² ، كما أن المحتل بوصوله لهذا المرحلة هو يدرك جيدا لأهدافه المستقبلية والمبنية في الأساس على العودة يوما ما لتلك البلاد ولو بأشكال مختلفة غير الاجتياح العسكري ولكن الأكثر خطورة هو تبني ثقافة المحتل وطمس وتجاهل الثقافات المحلية التي يصبح ينظر لها بازدراء من السكان الأصليين للبلد "إن البورجوازية الاستعمارية حين تدرك عجزها عن الاستمرار في السيطرة على البلاد المستعمرة تقرر لأن تخوض معركة خافية في ميدان الثقافة والقيم والتكتيك".³³ ، وما يتكرر عند الدول الضعيفة والمستعمرة سابقا ويذكر على المنابر هو أنه لا بد اليوم والتعايش مع حضارة المستعمر لكن

السؤال المطروح لماذا لا تتعايش بالمقابل الحضارة الغربية مع الحضارات الأخرى وهنا يقع الالتباس الذي يدفعنا للتساؤل حول ما يعرف بحوار الحضارات التي تدعوا له الدول المتخلفة ويتجاهله الغرب ولعل العولمة التي يتحدث عنها الجميع هي واحد من المظاهر التي سيعود بها المحتل "إن العولمة الثقافية تساهم كثيرا بمزيد من الفاعلية في التأثير في الثقافات الوطنية عبر أجهزة الإعلام والبريد التلفزيوني".³⁴، ما يجعلنا نتأكد من أن للصورة خطورة في فرض النموذج العالمي لكل مظاهر الحياة بما فيها الصورة المثالية للمرأة العالمية والتجاهل الكبير للاختلافات الموجودة في العالم والتركيز في طرح هذه الصورة على الجانب الجنسي خاصة ما يصل الشباب العربي من وسائل الإعلام الغربية التي تعد إحدى أبواق محو الثقافات المحلية ويذكر المفكر إياد البكري فيما يخص صورة المرأة التي تعرض وبصفة متكررة و سلبية في جل وسائل الاتصال الأجنبية والتي كما ذكرنا عادة ما تكون هذه المحتويات موجهة للشباب ما يؤثر بالسلب على التصور القائم نحوها فيقول "النزول بالمرأة من مستواها الإنساني وجعلها سلعة واقتراحها بالملذات ونزوات الرجال، وكل هذا من شأنه أن يؤثر على الأسرة وتماسكها وقيمها باعتبارها النواة الأساسية لأي تنظيم اجتماعي".³⁵، والأکید عند فانون أن الأصوات التي تطالب بضرورة التعايش مع ثقافة الميتروبول هي لطبقة وصل في نفسيتها الاستلاب إلى مراحل خطيرة جدا فيقول "إن المثقف الذي تبع الاستعمار على مستوى العموميات المجردة يريد أن يعيش المستعمر والمستعمر في سلام في عالم جديد ولكن الأمر الذي يعنى عنه أن الروح الاستعمارية قد تغلغت فيه مع طرائقها في التفكير هو أن المستعمر لن يهتمه البقاء ولا التعايش السلمي متى زال الوضع الاستعماري".³⁶ أي أن المحتل لا تهمه ثقافة البلد الذي يحتله في شيء بل على العكس يسعى جاهدا لمحوها وإزالتها لضمان بقائه كقوة ثقافية تكون سنداً له في تلك البلاد تحسباً لأي خطى مستقبلية، كما أن المتبع لتاريخ الجزائر الحديث ومن

بداية الاستعمار الفرنسي سيدرك أن الحرب الشرسة الأولى كانت موجهة نحو الثقافة والقيم الاجتماعية الجزائرية "فترة الاستعمار في الجزائر على الرغم من كل ما يميزها من استبداد واستغلال إنما كانت فترة صراع ثقافي بالدرجة الأولى لان المعمر كان يعرف بان شل الذهنية الجزائرية ومسح الإنسان بعد سلخه من الشخصية الوطنية هما اللذان سيسمحان بمواصلة ممارسة السيطرة في سائر الميادين وعلى مختلف الأصعدة."³⁷

وما نضيفه أيضا ما قاله الجنرال ديغول مباشرة بعد أن تأكد من حتمية زوال الاحتلال العسكري في الجزائر فصرح بأن فرنسا ستسحب اليوم لكنها ستعود بعد أجيال بفضل أجيال لا علاقة لهم بالثورة ولا بمبادئها وهو بالتأكيد ليس تصريح من عدم بل لأنه كقائد عسكري يعلم جيدا أين يضع القنابل ومتى ستنفجر ولو بعد أجيال ولعل أولى الثمار ما حدث مباشرة بعد الاستقلال من صراع الطبقة المثقفة بتيارها المعرب من جهة وصاحب الثقافة الفرنسية من جهة أخرى هو دليل على الفجوة التي حدثت في الثقافة الوطنية وذكرنا هذا المثال ليس من جانب الفصل بين الاتجاهين ولا في الاتهامات المتبادلة بين الطرفين أو اعتبار التيار المفرنس تابع للثقافة المحلية أو لا كما يرى البعض ولكن لنشير إلى نجاح فرنسا في بث التفرقة الثقافية منذ البدايات الأولى لخروجها من الجزائر حاملة أذيال الهزيمة العسكرية ولكن مقتنعة بنجاحها الذي خططت له منذ 1958 "هذا بالفعل ما شرعت فيه فرنسا منذ 1958 في تنفيذه إتجاه المجتمع الجزائري بقيادة الجنرال ديغول (...). قرر أن يكشف جهوده وجهود أجهزة الدولة الفرنسية من أجل التحضير لجزائر ما بعد الاستقلال فقد كان عمل فرنسا مركزا على أن تبقى الجزائر المستقلة مطبوعة بالثقافة الفرنسية وتحت السيطرة الكاملة للغة الفرنسية."³⁸ ونظرا للاختلاف الكبير بين فرنسا والجزائر من حيث حشد الإمكانيات والوسائل لتحقيق المشروع والتي كانت تنظر له

فرنسا على مبد أنه استمرار للحرب ضد الجزائر ف"أضحت الثقافة وسيلة يوظفها العدو لتحقيق الغاية الثقافية الأصلية وإحلال ثقافة المستعمر البديلة محلها."³⁹، وللوصول لأهدافها عملت فرنسا على غرس بذورها في طيات الطبقات الاجتماعية "بلوغ ذلك لجأ النظام الفرنسي إلى تعميق قيم المجتمع الغربي بين أفراد مجتمعا والى تشجيع تشكل فئة تعيش النمط الغربي على الطريقة الفرنسية في كل مظاهرها الحياتية من ملابس مأكّل مسكن، ووسيلة نقل وتربية وأسلوب حوار وطريقة كلام ولغة."⁴⁰، وإن استطاع المحتلّ الولوج إلى عمق المجتمع الجزائري فهذا راجع إلى المدة الطويلة التي بقيها بصفة مستوطن فعرف كيف يتغلغل في ثنايا التكوين الاجتماعي فعمل على أن يدحض كل محاولات النهوض بكل ما هو محلي "إن المستعمر والمستعمر يعرف أحدهما الآخر منذ زمن طويل والمستعمر حين يقول إنه يعرفهم هو على حق فيما يقول فالمستعمر هو الذي صنع المستعمر وما يزال يصنعه"⁴¹ هذا التأكيد جاء به فرانز فانون الذي عان هو الآخر وشعبه الإيتالي من ويلات الاحتلال الفرنسي والذي تناول بالدراسة ما يترتب من شعور بالاستلاب لدى الأمم المحتلة نتيجة لما يمارس من مختلف أشكال العنف المطبقة على الأفراد و يعطي فانون مثلا حيا عن الجزائر وطريقة تفريغ هذا العنف بأشكال مختلفة فالرقصات المحلية خاصة بعد أن شاهد العديد من الحالات بحكم عمله في المستشفى "لقد رأينا هذا العنف أثناء فترة الاستعمار يدور على فراغ ورأينا شحناته تفرغ في الرقص أو في الحفلات التي تعقد لطرد العفارت من الممسوسين."⁴².

5- التصدي لثقافة للاحتلال:

المتتبع لمسيرة النضال التي قادها الجزائري في ثورته ضد فرنسا سيلاحظ أنه في البداية كان من الصعب أن يخترق هذا الحصن المنيع للمجتمع الجزائري والحروس بعناية من الدين،

العادات والأعراف الجزائرية بالإضافة لكره دفين للغزاة نمت في أحشاء كل الجزائريين " في الداخل الشعب الجزائري في ردة فعل منه لم يقبل لأن يفقد شخصيته الوطنية ليتخل عنها لصالح شخصية مزيفة."⁴³ كما أن الجزائري اظهر كفاحا مستميتا ليظهر للمستعمر من جهة رفضه لتواجده ومدى تمسكه بثقافته من جهة أخرى خاصة في البدايات الأولى للاحتلال غير أن الحال تغير بعد حين "كان الجزائريون أول عهدهم بالاستعمار ينفرون نفورا شديدا من القيم الغربية التي حملها إليهم المعمر فإنهم اليوم يهرعون خلفه أو بالأحرى خلف قيمه وقد ساعد الفراغ الثقافي في امتداد القيم الغربية خصوصا انخيار القدرات المقاومة لدى الأفراد بسبب تدهور الظروف الاقتصادية والثقافية."⁴⁴.

بالإضافة لما رصده التاريخ من رفض الجزائريين الالتحاق بالمدارس الفرنسية التي انشأتها فرنسا في حركة منها لصناعة الفكر الكولونيالي في التركيبة الاجتماعية الجزائرية ومن خير من الأطفال ليغرسوا فيهم ذلك الانتماء للثقافة واللغة الفرنسية ومن ثم الإلمام بالثقافة الفرنسية "فالاستعمار الفرنسي يؤمن مثلا بضرورة تجريد المستعمرة من ثقافتها ومن تعليمها الأهالي، وإعطائها بدلا من ذلك تعليما فرنسيا ابتدائيا وذلك لضمان توجيهها نحو الوطن الأم، سواء من الناحية السياسية أو من الناحية الثقافية."⁴⁵، على حد اعتبار الإنسان المستعمر إنسان متخلف همجي لا يفهم في الحضارة في حين الاحتلال هو بمثابة الامتياز الذي حضي به الشعب الجزائري فكما يقول فانون "ان التكلم بلسان يعني الاضطلاع بعالم وثقافة."⁴⁶ ما يجعل على المتعلمين بلغة المستعمر أن يتحصل على المعارف باللغة التي تعلم بها في حين يبقى الإنتاج باللغة العربية آنذاك ضعيف نتيجة الاستعمار والقليل الذي كان يصلنا من بعض الدول الشقيقة في الحقيقة لم يكن كافي نظرا كما سبق الذكر للوسائل البسيطة ونردف لنقول إن الشعب الجزائري رفض أبنائه

ارتياح هذه المدارس واكتفوا بالكتاب والمدارس القرآنية والزوايا التي يقول عنها عضو المجلس الإسلامي الأعلى الجزائري **محمد الشريف قاهر** "إن الزوايا في فترة الاحتلال كانت بمثابة الثكنات العسكرية التي تعلم اللغة الدين وتغرس حب الجهاد في نفس الطالب للتصدي عند الضرورة وكذا كانت بمثابة المدرسة المعدة للمجاهدين آنذاك."⁴⁷، دون أن ننسى دور جمعية العلماء المسلمين التي تصدت للسياسة الفرنسية بقيادة العلامة عبد الحميد بن باديس ولعل ما ذكرناه عن البعثات العلمية لجامع الزيتونة والأزهر وكذا المدارس التي فتحت في العديد من الولايات لتعليم الجزائريين هو دليل على كشف وفهم المخططات الفرنسية للاستحواذ على الشخصية الوطنية والتحكم فيها بما يخدم مصالحها وخاصة فيما تعلق بتعليم البنات اللواتي شربنا من منبع العلو والحضارة والثقافة الوطنية، غير أن هذا التحدي والكره لكل ما هو فرنسي والذي يعني في المقابل الاحتلال أصبحت حدته تنقص مع الاستقلال نظرا لعوامل عديدة أهمها التيار الذي حمل لواءه أصحاب الثقافة الفرنسية "الملاحظ أنه مع زوال الاستعمار العسكري والفرنسي زالت أيضا المقاومة النفسية للقيم والمظاهر الثقافية الغربية التي كانت لدى شعبنا (...). إلى حد أن وصل بعض الأشخاص المستلبة عقولهم إلى الدعوة إلى الاقتداء بالنموذج الغربي باعتباره النموذج الأمثل والمعبر عن المعاصرة والتقدم."⁴⁸، لكن لا بد أن نقف بنوع من الموضوعية حول الركوض الثقافي في الجزائر بتوجيه أصابع الاتهام للمستعمر فان لنا نحن كجزائريين نصيب في ذلك لأننا قبلنا كما يقول الدكتور شريط بما هو قائم: "الإنتاج في الميدان الثقافي لا يختلف في قيمته ولا في أصوله أو أهدافه عنه في الميدان المادي أو المعاشي كما يسميه ابن خلدون إن نفسية القناعة التي تغل أرواحنا منذ قرون قتلت فينا فضيلة الطموح ومكنت فينا الاكتفاء بالتقاليد وكل ما لدينا من طموح يتعلق بالاستيلاء على متاع الآخرين، أما الطموح في الخلق والإنتاج فلم يستيقظ فينا بعد و القيمة

*الميتربول: يقصد به البلد المستعمر.

- 11- فرانز فانون، *بشرة سوداء أقنعة بيضاء*، نفس المرجع، ص 31.
- 12- فرانز فانون، *بشرة سوداء أقنعة بيضاء*، نفس المرجع ص 33.
- 13- فرانز فانون، *بشرة سوداء أقنعة بيضاء*، نفس المرجع ص 34.
- 14- نفس المكان.
- 15- فرانز فانون، *بشرة سوداء أقنعة بيضاء*، نفس المرجع ص 8.
- 16- فرانز فانون، *بشرة سوداء أقنعة بيضاء*، نفس المرجع ص 12.
- 17- فرانز فانون، *بشرة سوداء أقنعة بيضاء*، نفس المرجع ص 46.
- 18- فرانز فانون، *بشرة سوداء أقنعة بيضاء*، نفس المرجع ص 58.
- *المولدة: التي كان في سلالتها شخص أبيض ما جعلها أقل سوادا من الإنجليين الآخرين.
- 19- فرانز فانون، *بشرة سوداء أقنعة بيضاء*، نفس المرجع ص 72.
- 20- فرانز فانون، *بشرة سوداء أقنعة بيضاء*، نفس المرجع ص 80.
- 21- فرانز فانون، *بشرة سوداء أقنعة بيضاء*، نفس المرجع ص 91.
- 22- فرانز فانون، *بشرة سوداء أقنعة بيضاء*، نفس المرجع ص 98.
- 23- نفس المكان.
- 24- فرانز فانون، *بشرة سوداء أقنعة بيضاء*، نفس المرجع ص 119.
- 25- فرانز فانون *معدبو الأرض*، م س ذ، ص 27.
- 26- مالك بن نبي، *مشكلة الثقافة*، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر الطبعة الرابعة 1984. سوريا ص 25.
- 27- مالك بن نبي، *مشكلة الثقافة*، نفس المرجع السابق، ص 25.

- 28- حسن عبد الله العابد، *أثر العولمة في الثقافة العربية*، دار النهضة العربية الطبعة الأولى 2004 لبنان ص 19.
- 29- حسن عبد الله العابد، نفس المرجع ص 151.
- 30- مالك بن نبي، م س ذ، ص 74.
- 31- مالك بن نبي، نفس المرجع السابق ص 78.
- 32- مالك بن نبي، نفس المرجع السابق ص 77.
- 33- محمد العربي الزيري، *الغزو الثقافي في الجزائر 1962-1982*، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1968. ص 17.
- 34- فرانز فانون، *معدبو الأرض*، م س ذ، ص 33.
- 35- فرانز فانون، *معدبو الأرض*، نفس المرجع، ص 35.
- 36- حسن عبد الله العابد، م س ذ، ص 99.
- 37- مريم طالبي، م س ذ، ص 169.
- 38- فرانز فانون، *معدبو الأرض*، م س ذ، ص 36.
- 39- محمد العربي الزيري، م س ذ، ص 20.
- 40- مريم طالبي، م س ذ، ص 157.
- 41- مريم طالبي، نفس المرجع، ص 157.
- 42- محمد سليم قاللة، *الاختراق في الثقافة الجزائرية*، دار هومة، الجزائر، الطبعة الأولى، 2003. ص 157.
- 43- فرانز فانون، *معدبو الأرض*، م س ذ، ص 26.
- 44- فرانز فانون، *معدبو الأرض*، نفس المرجع السابق ص 51.
- 47 . Rachid boudjedra ; OP.cit ; p 71

- 45- مريم طالبي، م س ذ، ص 175.
- 46- أبو القاسم سعد الله، شعوب وقوميات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر دط، دس ص 96.
- 47- فرانز فانون، معذبو الأرض، م س ذ، ص 37.
- 48- مقابلة مع الشيخ محمد الشريف قاهر بالمجلس الإسلامي الأعلى 28 ماي 2008
- 49- مريم طالبي، م س ذ، ص 171.
- 50- عبد الله شريط، من واقع الثقافة الجزائرية، مطابع الشروق، لبنان، دط، د سنة. ص 97